الفن التشكيلي العربي المعاصر والفن الفلسطيني

اسماعيل شموط

بدأت ظاهرة الاتحادات في العالم العربي في العشرين سنة الاخيرة ، وأصبحنا نقرأ تباعا اخبار مؤتمراتها هنا وهناك ، فهذا مؤتمر للمحامين العرب ، وذلك للمعلمين العرب والاطباء والمهندسين والادباء والشعراء والصيادلة وما الى ذلك . وهي ظاهرة ، مهما يقال فيها ، تبقى ظاهرة صحية ، رغم القائلين انها ردة فعل للفشل الذي اصاب تحقيق الوحدة العربية على الصعيد السياسي . وهي ضرورية لتثبيت الشخصية القومية العربية على الصعيد العالمي الذي بات الصراع فيه يفرض حتى على مستوى العلم والفكر والفن ان يتخذ اشكالا قومية وعقائدية الى حد كبير . ومهما كان الرأي فيما انجزته الاتحادات العربية العلمية والفكرية فقد كان لا بد للفنانين التشكيليين العرب من الانضواء تحت لواء اتحاد عام لهم ، بفعل ضغط الحاجة لمثل هذا الاتحاد النابع من المشاكل التي يعانيها الفنان التشكيلي العربي ماديا وادبيا وضرورة التصدي لهذه المشاكل وحماية الفن والفنان على حد سواء .

ولا بد في هذا المجال من العودة قليلا الى الوراء ، الى مطلع هذا القرن حيث بدأت اولى خطوات الحركة الفنية التشكيلية المعاصرة ، عندما بدأ نفر من الفنانين الناشئين العرب بالسفر الى اوروبا او التتلمذ على أيدي بعض الفنانين الاجانب الذين كانوا يعيشون في بعض الاقطار العربية ، خاصة اثر الحرب العالمية الاولى . ومن هؤلاء ، على سبيل المثال لا الحصر ، بدأ محمود مختار ويوسف كامل ومحمود سعيد واحمد صبري في مصر ، وتوفيق طارق وجورج خوري ومحمود جلال وميشيل كرشه في سوريا ، وداود القرم وحبيب سرور وخليل الصليبي ومصطفى فروخ في لبنان ، ومحمد صالح زكي وعاصم حافظ وجواد سليم وفائق حسن وحافظ الدروبي من العراق ، ويحي التركي وعمار فرحات من تونس . وبشكل عام يمكن القول ان المدرسة الواقعية الاكاديمية والانطباعية كانت الطابع العام لاعمال الرعيل الاول من الفنانين العرب وهو طابع كان سائدا في المعاهد التي تلقى فيها هؤلاء تعليمهم الفني او تأثروا به عن طريق الاطلاع .

وتأسست في العشرينات مدرسة الفنون الجميلة في القاهرة ، وهي الاولى في الوطن العربي . غير ان معظم الاقطار العربية اليوم تنعم بكلية او معهد للفنون الجميلة او اكثر . وبدأ الرعيل الثاني من الفنانين يتخرج من هذه المعاهد . وبدأ عدد كبير من هؤلاء يوفد في بعثات فنية للخارج ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث نتج عن ذلك نشاط ملحوظ في هذا المجال ، سواء باقامة المعارض الرسمية او الخاصة ، او ازدياد عدد كليات ومعاهد الفنون في الوطن العربي والاقبال الشديد عليها من قبل الموهوبين الناشئين .

وتتميز اعمال الرعيل الثاني من الفنانين العرب بالتحرر من القيود الاكاديمية الواقعية والانطباعية والانطلاق بالتجربة الفنية وراء المدارس والمذاهب الفنية العديدة الحديثة التي سادت العالم منها التكعيبية والرمزية والتعبيرية والوحشية والمستقبلية والسوريالية والتجريدية. وفي السنوات العشر الاخيرة ، بدأ الرعيل الثالث من الفنانين العرب يخطو خطواته الاولى مستفيدا من تجربة الرعيلين السابقين باحثا في الوقت نفسه عن ذاته العربية . لقد اكتشف الفنان العربي المعاصر انه اسير المدارس والمذاهب الفنية الغربية ودخل بحكم ظروفه الصراع القائم في حركة الفن التشكيلي العالمي . لكنه اكتشف اخيرا انه يصارع في دائرة مفرغة معزولة .

كثيرون جدا من الفنانين العرب ، خاصة الذين درسوا في الغرب او تأثروا بمذاهبه خاضوا التجربة والصراع على أشده ، وحاولوا كغيرهم من الفنانين الغربيين ان يثبتوا وجودهم عالميا عن طريق اللحاق بالمحاولات الحديثة في الفن ، وتميزت اعمالهم بقيمة فنية لا تقل عن تلك التي لدى الفنانين الغربيين بمقياس الناقد الفني الغربي ، ولكن النتيجة كانت دائما مفجعة للفنان العربي ، حيث احيط دائما بالعزلة والتجاهل والاهمال . ونتيجة لذلك عاد الفنان العربي يبحث عن هويته ، عن وجوده في وطنه وعن تاريخه وتراثه . فالعالم لا يريد وليس بحاجة ان نقدم له ما سبقنا غيرنا اليه ، لاننا في هذه الحالة لا نضيف اليه شيئا ، بل هو يقبلنا